مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية
King Faisal Center for Research and Islamic Studies

دراسات

جمادى الآخرة ١٤٤٧هـ /
ديسمبر ٢٠٢٥م
٨٥

سعد الصويان: قراءة لا سيرة

قاسم بن خلف الرويس
الدوادمي

سعد الصويان: قراءة لا سيرة

قاسم بن خلف الرويس

الدوادمي

ⓒ مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية، ١٤٤٧هـ

الرويس ، قاسم بن خلف
سعد الصويان: قراءة لا سيرة. / الرويس ، قاسم بن خلف .-
الرياض ، ١٤٤٧هـ

٤٢ ص، ١٦,٥ x ٢٣سم (دراسات؛ ٨٥)

رقم الإيداع: ١٤٤٧/١١٤٧٠
ردمك: ٩٧٨_٦٠٣_٨٣٦٠_٧٥_٠

إخلاء مسؤولية

تُعبِّر جميعُ محتويات هذه الدراسة عن وجهة نظر كاتبها، ولا تُمثِّل بالضرورة وجهة نظر مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية.

المحتويات

مدخل	٨
بين الغضا والنخيل	١٠
ميلاد في رأس السنة	١٣
مأساة الطفولة الحزينة	١٥
من عنيزة إلى أمريكا	١٨
في الحرم الأكاديمي	٢٠
هل قرَّ عيناً بالإياب المسافر؟	٢٣
وحدة الذاكرة السعودية	٣٥
الإنسان سعد الصويان:	٣٧

«إنه لممّا يسعدني في آخر عمري أن أرى بلدي تمر بهذا الغلاسنوست glasnost وهذه البيريسترويكا perestroika، هذا الانفتاح وإعادة البناء.
لم أكن أنا وأبناء جيلي نحلم أن مجتمعنا كان مستعداً لتقبّل ما يحدث الآن والترحيب به واستيعابه وتمريره وكأنه أمر عادي»[1].

(سعد الصويان ١٥/٥/٢٠٢٠م)

(١) الصويان؛ سعد، ارفع رأسك أنت سعودي، صحيفة عكاظ، ١٥ مايو ٢٠٢٠م.

I

مدخل

تتوقف مكانة العالم أو منزلة المفكر على مقدار ما يأتي به من أفكار مبتكرة، أو ما يبدعه من حلول للمشكلات العويصة، فإذا سمع منه ما لم يسمع من قبل، أو كتب ما لم يكتبه غيره من قبل كان من العباقرة الأفذاذ الذين تفتخر بهم الإنسانية، ولكن معرفة أقدار هؤلاء العلماء والمفكرين تدور مع المعرفة والثقافة والوعي فكلما ازدهرت في قطر من الأقطار، كان أهله أعرف بأقدارهم وأحرص على تكريمهم، ولذا فإن التاريخ يشي بعلماء عاشوا في بلدان ولكن ذكرهم شاع في بلدان أخرى فشأنهم فيها أعلى من بلدانهم الأصلية، فلسان حالهم قول الشاعر:

وما أنا إلا المِسْكُ في غَيْرِ أَرْضِكُمْ يَضوعُ وأمَّا عندَكم فيَضيعُ

ومن العجب أننا كثيراً ما نتغنّى بأسماء الأدباء والفلاسفة والمفكرين الغربيين ويتداول إعلامنا سيرهم وأقوالهم حتى ترسخت في ذاكرة الأجيال، في الوقت الذي لا نعير فيه اهتماماً للأدباء والمفكرين الذين يعيشون بين ظهرانينا! ولعلنا نتساءل كم عالماً سعوديّاً كُرِّم أو مُنِح جائزة في الداخل أولاً ثم كرّم أو حصل على جائزة في الخارج؟ وكم عالماً كرّم أو منح جائزة دولية ثم كُرّم في الداخل بعد ذلك؟ هل نحتاج إلى اعتراف الآخرين بنوابغنا حتى نعترف بهم؟! أو أننا نجهل قدرهم فعليّاً وننتظر من يعرفنا به؟!

والحقيقة أن الإنسان عندما يكتب عن القامات العلمية العالية والشخصيات الثقافية الشامخة التي زهدت في المناصب أو زهدت فيها المناصب يقع في حَيْرةٍ من أمره وربما ترك القلم لمن هو أجدر منه بالكتابة عن أولئك العمالقة ممن هم أقرب إليهم وألصق بهم وأكثر معرفة بتفاصيل حياتهم، كما أن مكانتهم العلمية تفرض أن يتحدث عنهم من هو في درجتهم من العلماء الأجلاء الذين يقدرون أعمالهم ويشهدون على إنجازاتهم، ولكن حين تكون الكتابة من باب الوفاء للعلم والعلماء ومن منطلق التعريف بالأعلام الغائبين عن الإعلام وفي سياق تسليط الضوء على الثقافة السعودية والهوية والوطنية فلا بدّ من كلمة حق وإنصاف لأحد علماء الأنثروبولوجيا البارزين في بلادنا، إنه أكاديمي ولكنه ليس كالأكاديميين الذين تكلسوا في أبراج النخبوية منكفئين على

بحوثهم المكتبية المكرورة ودراساتهم التقليدية المجرورة ولكنه جعل المجتمع ميدانه والصحراء صولجانه ليستحلب الذاكرة الشعبية قبل فناء أجيال مرحلة ما قبل النفط ويجمع شتات المواد الثقافية الخام مشافهة من ألسنة الرواة والشعراء والحرفيين ثم يعمل عليها وفق المناهج العلمية الحديثة مستصحباً خبرة السنين ومهارة المتفننين وجلد المستشرقين! وماذا عساني أن أقول بعد ذلك عن هرم بحجم الدكتور سعد الصويان؟! ولكن الاحتفاء بسيرته وإنجازاته يطربني على كل حال.

فالدكتور الصويان عالم أنثروبولوجي بل هو - حسب علمي - **أول أستاذ سعودي في الجامعات السعودية في هذا التخصص وربما الوحيد إلى وقت قريب**، هذا الأستاذ قضى عمره في دراسة الثقافة العربية الأصيلة التي تمتد إلى أعماق التاريخ حتى أصبح مرجعاً علميّاً في كثير من مفردات هذه الثقافة، تشهد له في ذلك المراكز العلمية المتخصصة حول العالم، وألاحظ أن بعض الأطروحات تختزل دوره في دراسات الشعر النبطي والحقيقة أن تعمقه في دراسة الشعر النبطي ما كان إلا لأجل أنه اكتشف أن هذا الشعر أداة حسّاسة ومهمة لا يمكن الاستغناء عنها في فهم ثقافة الصحراء والتحليل والربط بين العرب الأواخر والعرب الأوائل ضمن أدوات علمية عديدة يستخدمها علماء الأنثروبولوجيا.

وإلا فالاهتمام بالشعر النبطي ليس غريبًا على أهل عنيزة – التي هي مسقط رأسه – وما لا يعرفه الجميع أن الدكتور سعداً كان على خطى أبيه أيضاً شاعراً نبطياً مرهفَ الإحساس نديَّ المشاعر يهزّه الجمال ويشعفه الهوى ومن أبياته:

جـــروح قلبـــي كل مـــا جيـــت ابرفـــاه هـــذا يشـــلّونه والآخـــر تِفَتّـــق
عِزّيـــل مـــن هـــو في حســـاب الهـــوى تـــاه اتعـــب اجمّعهـــا وترجـــع تِفَـــرّق

وهو القائل:

قالـــوا تثقّـــف قلـــت ليـــه اتثقّـــف مـــا نيـــب أنـــا راعـــي قْرايـــه وتعلـــوم
أقـــرا رْقـــومٍ راقشـــتها عـــلى الكـــف ولا نيـــب بقـــراي القراطيـــس ملـــزوم

ولا أدري بعد ذلك هل أتحدث عن سيرته الذاتية المنشورة أو عن علمه التخصصي المعلوم أو عن أعماله وإنجازاته المعروفة ولكن أليس من الأفضل أن نتحدث عن حياته من نقطة الصفر؟

II

بين الغضا والنخيل:

في وسط الجزيرة العربية تحت سماء نجد التي كان العرب يسمون سكانها (أهل الغضا) لكثرة نباته فيها، إذ قَالَتْ أُمُّ خَالِدٍ الْخَثْعَمِيَّةُ:

لَيْـــتَ سِـــمَاكِيًّا تَطِـــيرُ رَبَابُـــهُ يُقَـــادُ إِلَى أَهْـــلِ الْغَضَـــا بِزِمَـــامِ

وعلى أرض القصيم التي استعارت اسمها من منابت الغضا في أكنافها على ظلال كثبان الرمال المحيطة بواحاتها، ذلك الموقع الذي شكلت تضاريسه الطبيعية حماية له في قلب الصحراء، فأصبح مكاناً لتجمّع القبائل العربية قديماً وحديثاً، ومحطة رئيسة في طريق القوافل والحجاج، ولذا كان مسرحاً لكثير من الأحداث التاريخية.

هناك نشأت على ضفة وادي الرمة أقدم وأعرق مدن القصيم: عنيزة الفيحاء؛ التي يمتد تاريخها إلى القرن الثاني الهجري، عندما استخرج ماءها والي البصرة محمد بن سليمان بن علي بن عبدالله بن عباس، وابتداء عمارتها كما هو مستفيض لدى بعض علماء القصيم في القرن السادس أو السابع الهجري، وكانت مجموعة من القرى كل منها لها سور خاص ثم أصبحت بلداً واحداً. وكانت عنيزة في وقت من الأوقات السالفة أكثر مدن القصيم سكاناً، وأقواها تجارة، وأرقاها مدنية وذلك لما يتمتع به أهلها من لطف المعشر، ولين الجانب للأصدقاء والغرباء المسالمين. إلى جانب ما عرف عنهم من حماية العرين والصبر في الذود عن الدار والذب عن الجار. وعنيزة هي مدينة الأدب والتاريخ في القصيم وهي الأم التي أنجبت العديد من الأدباء والمؤرخين، ولعل ذلك هو ما جعل تاريخها المكتوب أكثر وضوحاً من تاريخ غيرها، ويكفي أن يقرأ المرء على سبيل المثال تاريخ الشيخ عبدالله بن محمد بن بسام (تحفة المشتاق في أخبار نجد والحجاز والعراق)، أو تاريخ مقبل الذكير المسمى (مطالع السعود في تاريخ نجد وآل سعود)، أو كتاب الشيخ عبدالله بن عبدالرحمن بن بسام (علماء نجد خلال ستة قرون) ليعرف أي ثروة تاريخية ضمتها تلك الكتب، بل إن هناك أوراقاً متناثرة في التاريخ والأنساب كان علماء عنيزة يتناقلونها ولم تكن منسوبة إلى شخص معين، ودوّن أكثرها مؤرخو عنيزة وضم كثيراً منها كتاب الشيخ إبراهيم بن عيسى (تاريخ بعض الحوادث في نجد

ووفيات بعض الأعيان وأنسابهم وبناء بعض البلدان)، ونظم الشاعر عبدالعزيز بن محمد القاضي قصيدة أسماها (العنيزية) أوجز فيها تاريخ عنيزة وحوادثها، وأما الشعر فصيحه وعاميه فإنه في عنيزة كثير إلى درجة أنه لا يُعلم موضعٌ في القصيم وربما في نجد قيل فيه مثل ما قيل فيها[٢].

عندما زار الإنجليزي تشارلز داوتي عنيزة في سنة ١٨٧٨م قال إن أهاليها يتمتعون بحرية مدنية تبعث على الإعجاب، ووجد فيها بعض الكتب التي يستغرب وجودها في نجد في ذلك الزمان مثل موسوعة البستاني المطبوعة في بيروت، وأشار إلى تفكير بعض سكانها في حفر الآبار الارتوازية وجلب مكائن ضخ الماء، بل إن العربة الوحيدة التي رآها في نجد كانت في إحدى مزارع عنيزة. وأشار داوتي إلى أن أهل عنيزة متحضرون متأنقون في الملبس والمأكل والتعامل، وكذلك في طريقة المشي والحركة والتحية، وبعضهم يعرفون شيئاً من اللغات ويتباحثون في الشؤون الدولية[٣].

أما فيلبي الذي زارها في سنة ١٩١٨م فذكر أنه قبل قدومه إليها سمع عن كرم أهلها وتسامحهم وعن خلوها التام من التعصب الديني؛ ليكتشف بعد ذلك أنه دلف إلى مجتمع شديد التحضر بل رفيع الثقافة، يضم رجال أعمال مغامرين بمشاريع تجارية على نطاق واسع، وتحدث عن بعض المظاهر الحضارية التي شاهدها فيها مثل الساعات ومكائن الخياطة ونحوها، ممّا جعله يصف عنيزة بجوهرة المدن العربية، بل هو من أطلق عليها اسم (باريس نجد)[٤]. فالتقطه الريحاني بعد ذلك، لكنه وصفها برومانسية فائقة بأنها أجمل من باريس إذا أشرفت عليها من الصفراء، لأنه ليس في باريس نخيل وليس لباريس منطقة من ذهب النفود، فتراها صغيرة وديعة خلابة بألوانها كأنها صورة صورها المصور الفرنسي (claude manet) لقصة من قصص ألف ليلة وليلة، أو كأنها لؤلؤة في صحن من الذهب مطوق باللازورد، هي السكينة مجسدة بين النخيل تحيطها الرمال الذهبية، وتكللها أشجار الأثل بأكاليلها، لترد عنها كثبان

---

(٢) العبودي، محمد ناصر، معجم بلاد القصيم ط٢، مطابع الفرزدق التجارية، الرياض ١٤١٠هـ/١٩٩٠م. ج٤/١٦٣٨-١٦٥٠. ج٤/١٧٤١-١٧٤٩.

(٣) الصويان؛ سعد، عنيزة وأهلها في كتب الرحالة الأجانب، ص٣، ٤، موقع الدكتور سعد العبدالله الصويان على الرابط: http://66.39.147.165/articles/Tribal/t65.pdf بتاريخ ١٥ يناير ٢٠٢٤م.

(٤) فيلبي؛ هاري سانت جون، جزيرة العرب الوهابيين، ترجمة يوسف مختار الأمين، العبيكان للنشر، الرياض ١٤٢٨هـ/٢٠٠٧م، ص٢٥٧، ٢٥٨، ٣٣٦، ٣٧٣، ٣٨٠

النفود التي تهددها من جهاتها الثلاث الشمال والغرب والجنوب وتقيدها فلا تستطيع التبسط والامتداد(٥).

ظلت عنيزة حتى بداية النصف الثاني من القرن العشرين محتفظة بتخطيطها العمراني وبيئتها الاجتماعية وعاداتها وتقاليدها تماماً كما وصفها داوتي فقد ظلت الحارات والشوارع والمزارع والأسواق التجارية محافظة على سماتها وأسمائها من الحارات التي ذكرها داوتي ولا تزال على قيد الوجود بأسمائها القديمة الخريزة وأم حمار والجديدة والضليعة والعقيلية والشعيبي والجناح والملاح والضبط والسفيلا والوهلان وتفصل بين هذه الحارات مساحات من المزارع وتتخللها الأزقة الضيقة التي تغطي معظمها أشجار النخيل(٦)، ويلاحظ كثرة القبب في عنيزة و(القبة) المقصودة هي التي تسمّى عند العرب المتقدمين (ساباط) فيسقف ما بين الدارين فوق الزقاق ويبنى عليه منزل ليكون سعة لأحد الدور أو طريقاً إلى أحد الدارين إذا كان صاحبهما واحداً، بينما كان أبرز معالمها المئذنة الطويلة مستدقة الطرف في جامعها(٧)، وكذلك برج الحراسة الدائري المسمى (الصنقر)(٨)، في حين اشتهرت بأسواقها التجارية تدهشك بما فيها من الأشكال والألوان فتذكرك بأميركا وبلاد الإنكليز(٩)وأشهرها (المسوكف) الذي هو مركز المدينة.

(٥) الريحاني؛ أمين، ملوك العرب، جزأين، ط٨، دار الجيل، بيروت، ج٢/٦٠٦، ٦٠٧

(٦) عنيزة وأهلها في كتب الرحالة الأجانب، مرجع سابق، ص٦

(٧) فيلبي، مرجع سابق، ص ٢٧٧

(٨) فيلبي، مرجع سابق، ص ٢٧٤

(٩) ملوك العرب، مرجع سابق، ج٢/٦٠٦، ٦٠٧

III

ميلاد في رأس السنة:

في هذه البيئة الجادّة الحادّة التي جمعت بين يديها متناقضات الماء والظمأ، والنخل والغضا، والصخر والرمل، والفقر والغنى، والإقامة والسفر، والحضارة والبداوة؛ لنقل إنها كتبت أبجديات اللين والقسوة في واحة من الصحراء، وظلت مدة طويلة في حالة واحدة بدون تقدم أو تأخر، وبدون زيادة أو نقصان، بدون يسر أو عسر، ربما كانت تنتظر طالع سعد أو طالع نحس ليخرجها من وضعها الجامد، لكن قلوب أهلها الطيبة، وعقولهم المتوقدة، ونفوسهم السمحة؛ حولتها إلى بساط من الزخرفات الأنثروبولوجية العجيبة ولد عليه الدكتور سعد بن عبدالله بن إبراهيم الصويان[١٠] لأسرة تنتمي لآل زهير من بني صخر من طيء[١١]، إذ حلَّ جد الأسرة زهير بن فلاح بن سالم ببلدة الشنانة بالقصيم حوالي عام ١١٥٠هـ قادماً من العلا وأنجب أربعة من الأولاد (شبيب، علي، شايع، ضويان) تفرع منهم حوالي ثمانية عشر من الأسر المعروفة في القصيم اليوم، لكن أسرة الصويان التي استقر بها المقام في الرس وعنيزة كانت وحدها من ذرية الولد الثاني المسمى علي[١٢].

كانت ولادة سعد في يوم مجهول وشهر مجهول من عام ١٣٦٣هـ/١٩٤٤م وفي زمن لم تولد فيه شهادة الميلاد وإنما كان الناس يؤرخون لسنوات مواليدهم بالحوادث الجارية في محيطهم خلال السنة بينما تتمحور الحوادث العالقة في أذهانهم عادة حول الحرب أو الوباء أو الجدب و أحياناً تدور مع المطر والسيل والخصب، على الرغم أن الحرب العالمية الثانية ما تزال مستمرة في تلك السنة وكفتها تميل لصالح الحلفاء ضد ألمانيا، ولكن المجتمع المحلي لا يؤرخ بمثل هذا الحدث الكوني ولذا نجد من تسميات تلك السنة عند العوام (سيل غشام)، (ربيع الحضن)، (الديم)، (مباشر)، (الردة) وكلها تشير إلى أنها كانت سنة رخاء وخصب[١٣]، ويروي الصويان على سبيل الفكاهة أنه

---

(١٠) العبودي؛ محمد بن ناصر، معجم أسر عنيزة، د.ن، د.ت. ج٩/٢٣٦

(١١) الصيخان؛ علي بن سالم، النبذة الوجيزة في أنساب أسر عنيزة، مطابع الحميضي، الرياض١٤٣١هـ، ص٩٠. الصويان؛ عبدالرحمن بن عبدالعزيز، صفحات مطوية من تاريخنا الشعبي، مطابع أضواء المنتدى، الرياض، ١٤٣١هـ، ص٢٦٥

(١٢) صفحات مطوية من تاريخنا الشعبي، مرجع سابق، ص٢٧٨

(١٣) الحربي؛ فائز بن موسى البدراني، أشهر التسميات المحلية للسنوات الهجرية وبعض ما فيها من الأخبار والمواليد والوفيات:١٣١٩-١٣٧٣هـ/١٩٠٢-١٩٥٣م. دار البدراني، الرياض ١٤٢٩هـ/٢٠٠٨م. ص٢٨٥، ٢٨٦

سأل جدته عن يوم ميلاده، فأجابت: «يوم بْقيرتنا السودا تْجيب العجيلة الحمرا» فكيف يمكن تحديد هذا اليوم؟! على أنه بعد ذهابه إلى أمريكا في سنة ١٩٦٥م قرر أن يحدد يوم ميلاده بنفسه تحديداً دقيقاً فاختاره يوم ١/١/١٩٤٤م لسهولة حفظه أولاً وليكمل به سن الرشد حسب القانون الأمريكي ثانياً، فكان هو تاريخ ميلاده الرسمي المثبت في سجلاته الدراسية لكنه حرم نفسه بهذا التاريخ الذي خطط له – كما يعلّق ساخراً- من إقامة حفلة لعيد ميلاده في كل عام لتزامنه مع حفلات رأس السنة الميلادية هناك(١٤).

(١٤) قناة روتانا خليجية، برنامج في الصورة، لقاء مع الدكتور سعد الصويان، ٣ يناير ٢٠٢٢م. على الرابط https://youtu.be/-GmQmrGHZRg?si=-KeiNMoSPbnILfZN بتاريخ ١ مارس ٢٠٢٤م.

IV

مأساة الطفولة الحزينة:

ما إن دلف الصويان إلى الحياة حتى صدمته بمأساة حزينة هي وفاة أمه وهو في سن الرضاع وفقد الأم لا يشابهه فقد آخر ولو نطق سعد الرضيع آنذاك لكان لسان حاله قول أبي العلاء المعرّي:

تَعَــبٌ كُلُّهَــا الْحَيَــاة فَمَــا أَعْجَــبُ إِلاّ لِــرَاغِــبٍ فِي ازْدِيَــادِ
إِنَّ حُزْنــاً فِي سَــاعَةِ الْمَــوْتِ أَضْعَــافُ سُرُورٍ فِي سَــاعَةِ الْمِيــلَادِ

على أن قسوة الحياة ومآسيها لم تتوقف فما أن بلغ الرابعة من عمره حتى انتقل والده إلى رحمة الله فأصبح يتيم الأبوين محروماً من حنانهما ورعايتهما بشكل أبدي، فهل نخال طفل الرابعة معبراً عن معاناته وتعاسته بقول أبي العلاء:

نَقْمْــتُ الرِّضَــا حَتَّــى عــلى ضاحِــكِ الْمُــزْنِ فَــلَا جَادَنــي إِلَّا عَبُــوسٌ مِــنَ الدَّجْــنِ
وليــت فمــي إن شــاء ســنّي تبسّــمي فــم الطّعنــة النّجــلاء تدمــي بــلا ســنّ

على أنه عاش بعد ذلك في كنف جده وجدته لأمه فعوضاه خيراً عن حنان أبويه وأحسنا رعايته وتربيته رغم شظف العيش وفقر الحال، فنشأ في تلك البيئة المتواضعة اقتصادياً وثقافياً بين الكفاف والحاجة، تحدث الصويان عن طفولته ونشأته فقال: «كانت حاضتني العوز والفاقة، وكانت مرضعتي التخلف والجدب الحضاري والفكري. ولدتني أمي وماتت وتركتني ولحق بها أبي بعد ذلك... كنت أستحم بالغبار وأصنع أدواتي من العظام وكرب النخل.»[١٥]

وذكر يتمه المبكر وكفالة الجدين له فقال: «حقيقة نشأتي كانت متواضعة جداً وبسيطة جداً فقد نشأت يتيم الوالدين ولكن الله عوضني بجدٍّ وجدّة كانوا أحنّ عليّ من أمه وأبيه لو كانا موجودين». ليتذكر بعد ذلك أحوال جدّه المعيشة في تلك السنين فيقول: « كان جدي لأمي الذي عشت في كنفه رجل فقير معدم فلاح منهك بالديون

(١٥) سعد الصويان: فاشل، فاشل، فاشل. مجلة المعرفة، ع ١٩٠، صفر ١٤٣٢هـ/يناير ٢٠١١م، ص ص١٢٥-١٣٠

ولكن في ذلك الوقت كان معظم الناس على هذه الشاكلة»[١٦]

ويصف الصويان جدّه (محمد بن سليمان الصويان)[١٧] بأنه كان راوية لا يشق له غبار في حفظ الأشعار والسوالف وأحداث التاريخ، وأنه قد تأثر به كثيراً ولعل ذلك مما دفعه في وقت لاحق لمعالجة هذه الأشعار والأحداث في كتاباته. لقد كان جده جندياً في الجيش العثماني وبعدها التحق بجيش الشريف حسين، وكان قبل ذلك شاهد عيان على وقعة الشنانة سنة ١٩٠٥م، وكان قصّاصاً يجيد السرد والربط بين الحوادث التاريخية بلغة يكثر فيها استعمال المجازات والعبارات البليغة والألفاظ الرصينة التي تشد المستمعين له، ويقول الصويان: «ومنه اكتسبت حب السوالف وعلوم الرجال»، بينما كانت جدته واسمها (مزنة) طبيبة شعبية تعالج الأطفال، وقد كتب عن شخصيتها وحياتها في إحدى مقالاته المنشورة تحت عنوان (جدتي مزنة)[١٨].

على أن جده على الرغم من قلة ذات يده اهتم غاية الاهتمام بإلحاقه بمواكب التعليم النظامي في مدارس عنيزة وحرص على إكماله جميع المراحل فقضى في عنيزة مراحل طفولته وصباه وشبابه، ولعله كان كسائر جيله يمشي في أزقتها المتعرجة الضيقة حافياً، ويلبس ملابس من خام القماش الذي تعتني جدته بتفصيله وخياطته بيدها، ويقضي يومه بين أسواقها وبساتينها وربما أرهف السمع عند مروره للنجار المطرب (أبو مدالله) وهو يتغنى في أثناء عمله بأغنية «يا مركب الهند يابو دقلين»[١٩] أو طرب لغناء سائق السواني على أنغام (المحاحيل)، على أن من يكون في مغارس السكري والبرحي لا بد له في مواسم القيظ من صعود أعالي النخل بالمخراف لجني الرطب، كما أنه يحلو لشباب عنيزة عادة السهر على كثبان النفود في الليالي القمراء مستمتعين بالسامري كأعلى درجات الترفيه في ذلك الزمان.

ومع مرور السنين بدأ يدرك أنه يعيش في هذه البيئة حالة مزرية في دوامة يومية متكررة بين بيوت الطين وفئرانها وغبار الأزقة وذبابها وبدأ يتطلع إلى الخروج إلى عالم

---

(١٦) ديوانية الدغيلبي الثقافية للشباب مع الدكتور سعد الصويان، ٤/١٢/ ٢٠١٤م، على الرابط https://youtu.be/c1FdpkgwipI?si=GmjnguNjIn8k2dW1 بتاريخ ١ مارس ٢٠٢٤م، والرابط https://youtu.be/cEcV-lIVtgs?si=BaolO8mMi9D0-en2 بتاريخ ١ مارس ٢٠٢٤م.

(١٧) صدر في عام ١٤٣١هـ كتاب من تأليف عبد الرحمن بن عبد العزيز الصويان بعنوان (صفحات مطوية من تاريخنا الشعبي) تناول سيرة محمد بن سليمان الصويان ومروياته الشعرية والتاريخية.

(١٨) حديث خاص لكاتب هذه السطور مع الصويان، الاقتصادية،١ مايو ٢٠٠٩م.

(١٩) الشبيلي؛ عبد الرحمن الصالح، مشيناها: حكايات ذات، مطابع سفير، الرياض ١٤٤٠هـ/٢٠١٨م، ص٢٨.

أرحب فليس هذا المكان الذي يريد أن يقضي فيه بقية حياته، لذا قرر في السنة الأخيرة من المرحلة الثانوية وكان في القسم الأدبي أن يحفظ كل المقررات حفظًا صمّاً ليحصل على معدل مرتفع يؤهله للابتعاث خارج البلاد لينفذ بجلده من المراغة التي كان فيها -على حد تعبيره- وفعلاً هذا ما حدث، وقد لفتت أساتذته قدرته المتسارعة على تفريغ ما حفظه على أوراق الاختبارات النهائية وطلبه أوراقاً أخرى فاتهمه بعضهم عبثاً بالغش!! وبعد إعلان النتائج ظهر تفوقه الحقيقي بإحرازه الترتيب الرابع على مستوى المملكة لعام ١٩٦٥م[٢٠].

(٢٠) مجلة المعرفة، مرجع سابق. ديوانية الدغيلبي، مرجع سابق.

V

من عنيزة إلى أمريكا

وقد تحققت للصويان في تلك السن المبكرة أمنيته فحصل على بعثة للدراسة في الولايات المتحدة الأمريكية في العام نفسه، فكان أشبه بسجين انطلق إلى فضاء الحرية بأقصى سرعة، ولعلنا نتساءل؛ أهو الهروب من غربة اليتم إلى غربة العلم؟! أو هي الهجرة من ضيق التخلف الحضاري والجدب الفكري إلى رحابة التقدم والتطور والثقافة؟!

لكنه على أي حال أمضى هناك ١٧ سنة ذهب كثير منها بلا جدية بينما قضى القليل منها في الجد والاجتهاد، ويعلّق على ذلك ساخراً: «ومن رحمة ربي أن الملحقية آنذاك لم تكن تدقق كثيرًا في المدد التي يمضيها المبتعثون هناك»[٢١].

في حين أن هذا الشاب النجدي البسيط الذي يسافر خارج وطنه لأول مرة لم يقطع هذه المسافات الحضارية بدون صدمات بل تلقّى صدمته الحضارية الأولى وهو في الطريق إلى أمريكا إذ شاهد في بيروت التلفزيون لأول مرة في حياته، ففزع ظناً أن الخيول التي تظهر على الشاشة منطلقة باتجاهه فعلياً! فهذه خلفيته الثقافية التي ذهب بها إلى أمريكا فلا غرابة أن يستنكر كل ما يراه حوله من سلوكيات، وأن يتعجب من كل ما يشاهده من اختراعات، لقد كانت صدمته الثقافية كبيرة جداً بدأت باللغة ثم التكيف مع الحياة الجديدة في طريقة الأكل وطريقة النوم لأنه في ذلك الوقت لم يسبق له تناول الطعام بالشوكة والملعقة، كما لم يسبق له النوم على السرير![٢٢]

ورغم صعوبات البداية إلا أن الحياة في أمريكا كانت تجربة ثرية بالنسبة له لأنه أدرك أنه يتعامل مع أناس يستخدمون عقولهم حق الاستخدام ويوظفونها أروع توظيف فلا يسهل استغفالهم، نعم هم يتعاملون بكل تهذيب ويناقشون ولكن في النهاية كل إنسان فيهم يرى أن له الحق في التفكير والتعبير عن رأيه بكل استقلالية،

---

(٢١) مجلة المعرفة، مرجع سابق. ديوانية الدغيلبي مرجع سابق.

(٢٢) برنامج في الصورة، مرجع سابق. قناة الجزيرة، برنامج المقابلة، الموروث الشعبي والثقافي لدول الخليج العربي مع سعد الصويان، ٢٦/ ١/ ٢٠١٧م، على الرابط
https://youtu.be/8cQ9CYqTb7Q?si=P_OxBaZDrYlb-STl بتاريخ ١ مارس ٢٠٢٤م.

وكان هذا وضعاً جديداً مختلفاً على المبتعث من نجد في ذلك الزمان، ولكنه لم يلبث حتى تعايش معه، وكان في البداية منشغلاً بالاندماج مع الثقافة الأمريكية أكثر من انشغاله بالدراسة، فتنقل في عدة ولايات وعدة جامعات واختلط بالأمريكان وعايشهم[٢٣]. لدرجة أنه يرى أنه تعلم من مباشرة الحياة هناك والانغماس فيها أكثر مما تعلمه من صفوف الدراسة.

إن التجربة الأمريكية قلبت حياته وطريقته في التفكير رأسًا على عقب. فكان يفضّل الجامعات التي لا يوجد فيها طلبة عرب لأنه من البداية وجدهم يذهبون إلى هناك ويجيئون بخلافاتهم ومشكلاتهم وتخلفهم معهم، ولذلك قرر أن يبتعد عنهم ما أمكن. لقد عرف في أمريكا معنى الحرية الفردية واستقلالية الرأي.

بل أدرك أن هناك شيئًا اسمه العقل يمكن للإنسان أن يشحذه ليستفيد من قدراته، ليكتشف أنه كان في تلك الأجواء العلمية أشبه بالأمي وكأنه لم يتعلم شيئًا من دراسته الابتدائية والثانوية، فكان عليه فعلياً أن يبدأ الكثير من المعارف من أبجدياتها ليحكم قبضته الذهنية عليها، وهذا أمر استنفد منه الكثير من الوقت والجهد، وشيئًا فشيئًا بدأ إصراره يزداد ليتعلم وينضج فكريًا وعاطفيًا وأن يفكر ويتحمّل مسؤولية تفكيره وأن ينبذ ازدواجية المعايير بين الفكر والسلوك، وبين ما يفكر فيه وما يقوله ويكتبه.

وعلى الرغم من المحاولات الجادة والمدة الطويلة التي قضاها في أمريكا إلا أنه فشل في تقمّص الشخصية الأمريكية، فهناك ندوب ثقافية غائرة تحت الجلد يصعب بُرؤها، وكلما تعمقت محاولاته لفهم الثقافة الأمريكية وجد أنه لا إراديًا وبطريق غير مباشر يتعمق في فهم نفسه وخلفيته الثقافية والاجتماعية، لأن المقارنة بين الحالين تأتيه تلقائيًا وبدون قصد. إلا أنه لاحقًا صار يتعمد المقارنة ليتمكن من فهم الثقافتين كل منهما على أرضيتها المختلفة ووفق معطياتها المتميزة. على أنه في منتصف المرحلة بدأت تراوده بقوة فكرة أن لا عودة إلى بيوت الطين والغبار والقمل والبعوض والذباب، كيف له بالعودة إلى حياة رتيبة وأفكار مسطّحة ليس فيها أي تضاريس تسمح بأدنى اختلاف في وجهات النظر والاستقلالية الذاتية!

(٢٣) ديوانية الدغيلبي، مرجع سابق.

VI

في الحرم الأكاديمي

أمَّا من ناحية الدراسة فقد التحق بجامعة شمال إلينوي (Northern Illinois University) وتخصص في علم الاجتماع وتخرج فيها عام ١٩٧١م، لكن عجلة المقارنات التي استغرق فيها بين ثقافته وثقافة الآخر قادته في النهاية إلى دراسة الأنثروبولوجيا التي وجد أنها أقرب إلى أن تلبيه شغفه بفهم ثقافة مجتمعه من علم الاجتماع الذي يدرس المجتمعات الصناعية والرأسمالية، فمال إليها وتخصص فيها بحثاً عن مفاتيح توفر له الإجابة عن كثير من تساؤلاته المغلقة، بل لعله رأى أنها ستمنحه الأدوات التي ستساعده على تفكيك رموز (سوالف) أجداده وأعمامه يقول عن ذلك: «بيتنا كان بيت سوالف بيت سوالف وقصيد وتاريخ شعبي كان أحد أجدادي يحفظها وأبوي كان شاعر فوجدت أن هذا التخصص يجمع بين الحسنيين مجال أكاديمي وفي نفس الوقت شيء أنا أصلاً ميّال له»[٢٤].

وبعد ثلاث سنوات وفي عام ١٩٧٤م تحديداً حصل على الماجستير في الأنثروبولوجيا من الجامعة نفسها، و كان عنوان الرسالة: (The Position of Jinn in the Arab World View) وفكرة الرسالة تدور حول الجن كظاهرة ثقافية، وتناول فيها المفاهيم الدينية والشعبية للجن محاولاً مقارنتها بمفاهيم الثقافات الأخرى، ومركزاً على حالات التلبس أو الإصابة بالجنون التي أكّد أنها تحدث عادة في المحطات الانتقالية مكانياً وزمانياً إذ يكون فيها الإنسان في منطقة بينية غامضة تثير قلقه والقلق أول مراحل الجنون، ويحاكم رسالته بأثر رجعي فيشير بكل تواضع بأنه خجول منها الآن لأنها كانت سطحية جداً ودون مستواه الحقيقي لأنه كتبها قبل ينضج فكرياً وعلمياً بما فيه الكفاية، ولذلك فهو لا ينصح بقراءتها لأنها لا تقدم الشيء الكثير عن الفكرة لأنه لم يعالجها بالصورة المطلوبة ولو أعاد النظر فيها الآن لكان لديه مجال أكبر للتحليل، ورغم أنها تمثل مرحلة علمية تجاوزها بمراحل إلا أنه لا يجد غضاضة في الاعتراف بذلك لأن الإنسان حقيقة لا يصل إلى مرحلة النضج إلا بعد عناء وكفاح ومرور بمحطات لو أتيحت له الفرصة مرة أخرى لتجاوزها أو أعدّ العدّة لكي لا يمرّ بها ولكن هذا قدر الإنسان على الأرض[٢٥].

---

(٢٤) برنامج في الصورة، مرجع سابق.

(٢٥) ديوانية الدغيلبي، مرجع سابق.

وبنهاية مرحلة الماجستير بدأت المرحلة العلمية الثرية من حياته إذ التحق ببرنامج الدكتوراه بجامعة عريقة تصنف ضمن أقدم عشر جامعات في الولايات المتحدة الأمريكية، وتحظى بمركز علمي متقدم يضعها بين الجامعات الأوائل على مستوى العالم إذ حصل ٧٠ باحثاً على الأقل ممن ارتبط بها على جائزة نوبل، وهي جامعة كاليفورنيا في بيركلي U. C. Berkeley، ويقول: إنه لم يأخذ مسألة الدراسة بجدية وانضباط حقيقيين إلا بعد التحاقه بهذه الجامعة المتميزة(٢٦).

فأمضى في جامعة كاليفورنيا سنوات مرهقة من الكد الذهني والجهد العلمي ورغم صعوبتها إلا أنه وجد فيها لذة البحث والتحليل بعد أن تمكّن من أدواته، كما وجد متعة الإبداع والتميز بعد أن اكتشف إمكانياته فثابر بدرجة عالية من الوعي والتفكير حتى حصل في عام ١٩٨٢م على الدكتوراه في الأنثروبولوجيا والفلكلور والدراسات الشرقية، وكان الإشراف على برنامج الدكتوراه مشتركاً بين ثلاثة أقسام [interdisciplinary] هي الأنثروبولوجيا وهذا هو القسم الأساس وينتمي إليه المشرف على الرسالة الدكتور Alan Dundes، وقسم دراسات الشرق الأدنى وينتمي إليه المشرف المساعد على الرسالة وهو الدكتور منح خوري، وقسم الأدب المقارن، وكان عنوان رسالة الدكتوراه (Nabati Poetry: The Oral Poetry Of Arabia)، ونظراً لتميز هذه الرسالة فقد قامت دار النشر بجامعة كاليفورنيا بنشر الرسالة بالعنوان نفسه في عام ١٩٨٥م وقامت على ضفاف هذا الكتاب مراجعات منشورة لأساتذة متخصصين في الجامعات الأمريكية.

ويتحدث الصويان أن باعث اختياره لموضوع أطروحته هو أنه لاحظ في أثناء دراسته لمقررات الشعر الجاهلي في جامعة كاليفورنيا تبني الأستاذ لنظرية الشفهية التي تفترض عدم وجود شاعر ولا نص أصلي بناء على دراسة علماء الغرب لملاحم الإغريق، فهناك بنية لتسلسل الأحداث ولكن طريقة نسجها وترتيبها تختلف من أداء إلى آخر، فتذكّر الشعر النبطي ومرويّات جده محمد السليمان الذي كان يروي القصص والقصائد بالصيغة نفسها في كل مرة، ورأى أن الطريق الصحيح في فهم آليات الشعر الجاهلي هو دراسة الشعر النبطي، بحيث يثبت أولاً علاقة الشعر النبطي بالشعر الجاهلي ثم يدرس آلية النظم والأداء والتداول في الشعر النبطي الحالي من

(٢٦) ديوانية الدغيلبي، مرجع سابق.

خلال البحث الميداني لتعكس نتائجها على الشعر الجاهلي، وأن ذلك يدحض أقوال صمويل مرجليوث حول نشأة الشعر الجاهلي ويفنّد آراء طه حسين في كتابه (في الشعر الجاهلي)، ومن هنا بدأ اهتمامه بالشعر النبطي الذي أصبح في وقت لاحق نافذته على ثقافة الصحراء العربية[٢٧].

في تلك المرحلة كان الخط المحيط لدائرة حياته قد وصل إلى منتصف المسافة من النقطة التي بدأ منها وتركه معلقًا في الوسط، لكن تأملاته صارت تدفع به ليكمل الدورة ويعود إلى نقطة البدء، إلى الوطن[٢٨].

(٢٧) ديوانية الدغيلبي ، مرجع سابق. برنامج في الصورة، مرجع سابق.
(٢٨) مجلة المعرفة، مرجع سابق.

VII

هل قرَّ عيناً بالإياب المسافر؟

أدرك الصويان في غربته الطويلة أن لكل ثقافة منطقها ولا يجوز المفاضلة بين الثقافات وكل ما هنالك أن المسألة مسألة نسبية بحتة، فعاد إلى جذور ثقافته ليتفحصها بعيدًا عن الانطباعية وعن القوالب الجاهزة، وبعد أن تسلح بالمنهجية العلمية أعاد اكتشافها بموضوعية، فبدأ بنزع الأقنعة واحداً بعد الآخر حتى حسرت له ثقافته عن وجهها وتبدّت له حقيقتها الغائبة عن ذهنه. يقول الصويان: إنها لم تكن جميلة لكنها لم تكن قبيحة بالشكل الذي كان يتصوره، فتآلف معها حتى باحت له بأسرارها واشتكت له أن غالب أهلها لا يعرفونها على حقيقتها وبعضهم يلبسونها لبوسات ملتبسة، فما لبث حتى ارتبط بها رسمياً ليعود بعد ١٧ سنة ويدها في يده مردداً في أثناء نزوله من الطائرة البيت الشهير لشاعر عنيزة علي الخياط الذي يردده أهل عنيزة في احتفالاتهم:

هـــذي عنيـــزة مـــا نبيعـــه بالزهيـــد لا فرّعـــن البيـــض نحمـــي جالهـــا

وبينما كانت أحلامه تسوقه إلى فضاء العمل الجاد والدراسات الأكاديمية العميقة فإنه كان متحمساً وحيوياً ومتوقداً منذ وطأت قدماه أرض الوطن عام ١٩٨٢م بحضوره الإعلامي ونشاطه الثقافي ولكن ما إن بدأ مشواره الجديد حتى اصطدم بإشكالات ومعوقات وظهرت في طريقه صعوبات وعقبات نتيجة اختلاف المفاهيم وطريقة التفكير وتباين الأهداف وربما سوء الفهم وسوء الظن بين القادم من الغرب والمقيم في الشرق، فدخل في معارك في كل الاتجاهات فالصحافة الشعبية الذي يفترض أن تدعم توجهاته لخدمة الثقافة الشعبية لم تستوعب الطرح المنهجي والمصطلحات العلمية التي يدعو إليها!! ولو وقف الأمر على الصحافة الشعبية لاكتفى بترديد قول الشاعر:

أنـــا عـــلى لانٍ وربعـــي عـــلى لان متخالـــفٍ رايـــي وراي الجماعـــة

ولكن الساحة الثقافية أيضاً أجلبت عليه خيلها وبادرته بالحرب واتهمته بالدعوة إلى العامية واعتبرت أطروحاته جناية على اللغة العربية تهدف إلى القضاء عليها في

مهدها، واستنكرت وجود الصلة بين الشعر النبطي والشعر الجاهلي، بل أكدت مع سبق الإصرار والترصد أن في إحياء الشعر النبطي دعوة لإحياء النعرات الجاهلية!!

كما استجّرت هذه المعارك أطرافاً من التيار الديني حاكمت نواياه ووصفته بمناهضة الإسلام ومناهضة العروبة، منهم من اكتفى بطلب المغفرة والهداية له ومنهم من طلب منه مراجعة نفسه والتوبة من ذنبه.

وأخذ بعضٌ من هؤلاء يتهكّم بشهادة الدكتوراه غير مفرّقين بين الشهادة التي كانت في الأنثروبولوجيا والفلكلور والدراسات الشرقية وبين موضوع الرسالة الذي يتمحور حول الشعر النبطي، فهم غير مستوعبين للمساق العلمي الطبيعي للحصول عليها من أمريكا.

ومع ذلك فإنه لم يذخر جهداً في محاولة إقناع أولئك في هدوء وعقلانية متعجباً من ذلك الهجوم مثل قوله في نهاية محاضرة في النادي الأدبي بالرياض عام ١٩٨٥م بعنوان **(العزوف عن دراسة التراث الشعبي الأسباب والنتائج)** موجهاً كلامه لبعض المعارضين: « ألست واحداً من مثقفي هذا البلد ومن حقي أن تكون لي وجهة نظر وأن أدافع عنها؟!....هل يليق أن نواجه رأي الغير بهذا السيل من المصادرات والافتراءات والتهديد والتخويف؟!»

وكانت الجبهة الرابعة هي جبهة الجامعة أو الوسط العلمي الذي كان ينتظر منه العون في دعم دراساته وأبحاثه حيث فشل في لفت الانتباه إلى أهمية الدراسات الشعبية لأن محاولاته فُسّرت كتفسير الآخرين، كما حاول في أثناء في رئاسته لقسم الدراسات الاجتماعية (١٩٨٤-١٩٨٨م) إدخال فرع للأنثروبولوجيا ولكن زملاؤه في القسم الذي كان يتوقع منهم الدعم فسروا ذلك بأنه تهديد لهم في أرزاقهم لأنه محاولة لإلغاء علم الاجتماع، بينما عمادة الكلية آنذاك فسرت المسألة بأنه محاولة لتدريس الطلاب بأن الإنسان أصله قرد!! فقد كان المفهوم السائد للأنثروبولوجيا آنذاك هو مفهوم الأنثروبولوجيا العضوية أو الطبيعية التي تتحدث عن تطور الإنسان بينما كان يسعى لتدريسها بصفته علم ثقافات إنسانية، فأصبح حاله كحال القائل:

إن الـــذي بينـــي وبـــين بنـــي أبـــي وبـــين بنـــي عمّـــي لمختلـــف جـــدّا

ربما لو قامت هذه الحرب المعلنة على غير الصويان لحزم حقائبه وعاد أدراجه من حيث أتى، وحتماً سيجد من بين المراكز العلمية هناك من يحتضنه ويدعمه بسبب

تأهيله العالي ورصيده المعرفي وخبرته العميقة في تخصصه، ولكنه كان محارباً شرساً يستعصي على الانقياد وكأنه يتمثل قول الشاعر:

لا أبتغـي وصـل مـن يبغـي مقاطعتـي ولا ألـين لمـن لا يبتغـي لينـي

بينما يفسّر هو بعض هذه المواجهات بسوء التوقيت حيث أشار أن عودته للمملكة جاءت في أوج المد الأصولي وهو الذي ساهم كثيرًا في إخفاقات مشاريعه وفي تعمد اغتيال ذاته وتشويه سمعته وتعبئة الأجواء ضده ربما على طريقة:

فـإن قلـتُ عُرْفـاً أنكـروه بِمُنكـرٍ وغطّـوا عـلى التحقيـق بالشـبهات

ولكنه تقاصر عن جدالهم ولجأ بعد ذلك للتخلص من هذه الضوضاء بالصدود والصمت والبعد عن الإعلام مشبهاً نفسه «بمذنب هالي أو بالنجم أبوعسيب اللي ما يظهر إلا بالسنين المدهرة»، ولكنه في الحقيقة انشغل بالاستغراق في مشاريع علمية اقتنصها لتخفيف الضغط والإحباط وإثبات الوجود مكتفياً بترديد البيتين:

لـولاي أخـلّي كل سيـلٍ ومجـراه مـا صـار لي عنـد النشـامـا شْبـوحِ
إلى شـفت خبـلٍ يدبـل الكبـد بحـكاه صدّيـت عنـه وقلـت أنـا أبخـص بروحـي

فانصرف أولاً إلى **(مشروع جمع الشعر النبطي من مصادره الشفهية)** الذي موّله مركز البحوث بكلية الآداب، جامعة الملك سعود، ويؤكد الصويان أن الموافقة على هذا المشروع لم تكن أمراً سهلاً خصوصاً أن توقيته جاء متزامناً مع ذروة الصحوة الدينية وشيوع فكرة أن «حصوننا مهدّدة من الداخل»، وأن تشجيع دراسة الثقافات الشعبية واللغات المحلية مؤامرة استعمارية تهدف لتفتيت الأمة العربية والقضاء على الفصحى، لغة القرآن الكريم. فكان الهجوم الإعلامي على شخصه آنذاك شرساً بحكم اهتمامه بالثقافة الشعبية واللغة المحلية، في حين أشار إلى أنه خلال احتدام النقاش حول مشروعه في مجلس كلية الآداب -بحكم أن البعض اعتبر مشروعه تشجيعاً للعامية والمناطقية- ضاق زميله الدكتور عبدالعزيز المانع ذرعاً بعبثية النقاش وقال لأعضاء المجلس ممازحاً: «دعوا الصويان يجمع الشعر العامي في أشرطة ثم نقوم نحن بحرق الأشرطة لنقضي بذلك على العامية». إلا أن المجلس في الأخير وافق على المشروع.

أخذ منه تنفيذ المشروع عدة سنوات كانت من أجمل سنوات عمره – كما يقول- جاب خلالها صحراء الجزيرة العربية واستمع لفصحاء البدو ممن هم على الفطرة ونقاء السريرة يروون من الذاكرة أحلى السوالف وأجمل الأشعار بلهجتهم البدوية القح، فتم فيه تسجيل مئات الساعات من المقابلات الشفهية مع المسنين من رواة البادية وجمع كل ما يتعلق بحياة البادية من أشعار وقصص وأنساب ووسوم وديار وموارد ومعلومات إثنوغرافية وتاريخ شفهي وذلك خلال الفترة (١٩٨٣-١٩٩٠م). وبعد الانتهاء من المشروع أُودعت الأشرطة في أحد مكاتب قسم الدراسات الاجتماعية، وبدأ فعلياً بفهرستها وتفريغها كتابياً بلهجاتها المحلية[٢٩].

ولكن بعد فراغه من مهمته الميدانية الطويلة بوقت قصير وفي عام ١٩٩١م تحديداً طلب صاحب السمو الملكي الأمير خالد بن سلطان بن عبدالعزيز إعارته من الجامعة للعمل في (دار الدائرة للنشر والتوثيق) على مشروعين ضخمين موّلهما سموه استغرق تنفيذهما عدداً من السنين، أولهما المشـروع الوثائقي الرائع **(الثقافة التقليدية في المملكة العربية السعودية)**، الذي صدر عن دار الدائرة للنشر والتوثيق في اثني عشر مجلداً يقع كل منها في حدود ٥٠٠ صفحة يتناول كل مجلد منها جانباً من جوانب الثقافة التقليدية من الطب الشعبي والعطارة إلى الألعاب الشعبية إلى العمارة التقليدية إلى الفلاحة إلى الحرف اليدوية، وهكذا. وشارك في تأليف هذه المجلدات وكتابتها عشرات المختصين والأكاديميين والمهتمين بمختلف جوانب الثقافة الشعبية والحياة التقليدية في مختلف مناطق المملكة العربية السعودية. كما شارك شخصياً في تأليف بعض المجلدات مثل مجلد الإبل ومجلد القنص والصيد.

وثانيهما المشروع الوثائقي العظيم (**الملك عبدالعزيز آل سعود: سيرته وفترة حكمه في الوثائق الأجنبية**)، الذي صدر عن دار الدائرة للنشر والتوثيق في ٢٠ عشرين مجلداً ضخماً يقع كل منها في حدود ٧٠٠ سبعمائة صفحة، تحتوي على ملخصات عربية وافية لما لا يقل عن ٥٠,٠٠٠ خمسين ألف وثيقة جُلبت أصولها من الأرشيفات البريطانية والفرنسية والأمريكية كلها تتعلق بفترة حكم الملك عبدالعزيز آل سعود، وتغطي الفترة التي تمتد من نهاية القرن التاسع عشر حتى نهاية عام ١٩٥٣. وشارك في تلخيص وترجمة وصياغة هذه الوثائق عشرات المؤرخين والمختصين في اللغات الأجنبية.

(٢٩) الصويان؛ سعد، الذاكرة السعودية، صحيفة عكاظ، ١٦ يونيو ٢٠٢٣م.

أمضى الدكتور سعد الصويان في إنجاز المشروعين السابقين عشر سنين خلال الفترة ١٩٩١-٢٠٠١م، ربما يكون عوّض بهما بعض إحباطاته السابقة؛ لأنهما بالفعل كانا من أهم المشاريع التوثيقية على مستوى العالم العربي كله وتميزت بالدقة والإتقان وصرامة المنهج وقيمة المضمون وأناقة الشكل وضخامة الحجم. ويحق للصويان أن يقول ذلك «بالفم المليان»[٣٠].

ولكن بعد إنجازه هذه المشاريع العلمية العظيمة كان على موعد مع مفاجآت لم تكن في الحسبان تصلح أن تكون رواية في فن تكسير مجاديف المبدعين، فقد تمت بقدرة قادر مصادرة المشروع الأخير بعد طباعته ومنعه من التداول!! ثم أنه لما عاد إلى الجامعة وجد أن الأرشيف الذي عمل على تكوينه في قسم الدراسات الاجتماعية للعناية بالتسجيلات التي جمعها في مشروع جمع الشعر النبطي من مصادره الشفهية وبدأ بفهرستها وتفريغها كتابياً غير موجود، فقد رمى القوم بالأشرطة في أحد المخازن مما عرضها للتلف جراء الغبار والحرارة، لكن لحسن الحظ كان يحتفظ بنسخة أخرى فبادر لإكمال عمله على فهرستها وتفريغها كتابياً بلهجاتها المحلية، وقد أخذ ذلك منه جهداً ووقتاً وتحمّلاً لا يطيقه إلا من يملك الشغف والصبر، هذا التفريغ هو الذي نتج عنه لاحقاً كتاباه (أيام العرب الأواخر) و(الصحراء العربية: شعرها وثقافتها عبر العصور)[٣١].

وممَّا يؤسف له أن الدار الناشرة لموسوعة الثقافة التقليدية في المملكة العربية السعودية اختفت ولم يعد بالإمكان إعادة طباعة الموسوعة مرة أخرى!! ولعل وزارة الثقافة اليوم تتبنى فكرة إعادة إصدارها بالطريقة التي تراها مناسبة، فإن كل الصيد في جوف الفرا.

والحقيقة أن الدكتور سعد الصويان كان وما زال مؤمناً بخلود الأعمال العلمية الرصينة، وقد ظلت مشاريعه العلمية السابقة رغم كل شيء معيناً لجميع الباحثين بسبب سرعة انتشارها وتداولها بطريقة أو بأخرى، وندر أن تخلو رسالة علمية في التاريخ الحديث أو في علم الاجتماع من الاعتماد على تلك المشاريع ولعل في هذا عزاءً له.

(٣٠) الذاكرة السعودية، مرجع سابق. مجلة المعرفة، مرجع سابق.

(٣١) الذاكرة السعودية، مرجع سابق.

مع العلم أنه صدر للدكتور الصويان خلال ١٩٨٣-٢٠٠١م أيضاً عددٌ من الكتب والدراسات والمقالات باللغتين العربية والإنجليزية تتسم بالتجديد والإضافة النوعية، فقد نشرت جامعة كاليفورنيا رسالته حوله الشعر النبطي سنة ١٩٨٥م، وصدر في العام نفسه كتابه (**جمع المأثورات الشفهية**)، وفي عام ١٩٨٨م نشر كتابه (**حداء الخيل**) الذي يعد أول مؤلف عربي مطبوع في هذا الفن، كما نشرت له دار هاراسوتز في ألمانيا سنة ١٩٩١م دراسة لغوية وإثنولوجية بعنوان (The Arabian Oral Histoical Narative). وفي عام ٢٠٠٠م صدر له عن دار الساقي كتاب ضخم يحمل خلاصة دراساته الطويلة في الشعر النبطي تحت عنوان (**الشعر النبطي - ذائقة الشعب وسلطة النص**)، وجاء في ٦١٦ صفحة والذي رصد فيه أوجه العلاقة التي تصل الشعر الجاهلي بالشعر البدوي أو ما يسمى بالشعر النبطي، وتتبع فيه مسيرة الشعر في الجزيرة العربية وفق حقب متتالية، تبدأ من العصر الجاهلي، عصر الفصاحة، حتى العصور اللاحقة، عصور العامية، للبرهنة على أن الشعر الجاهلي والشعر النبطي هما البداية والنهاية لموروث شعري مستمر عبر التاريخ، واعتمد الدكتور في تحقيب الشعر النبطي على دراسة وتحقيق المخطوطات الشعرية القديمة، ويعدّ هذا العمل من الأعمال ذات المنهج العلمي الرصين التي لا يستطيع إنجازها إلا من هو في خبرة وكفاءة وجلد الأكاديمي سعد الصويان.

وفي العام التالي أي عام ١٤٢١هـ - ٢٠٠١م صدر له عمل نوعي غير مسبوق هو (**فهرست الشعر النبطي**) في ٦٦٨ صفحة، والذي هدف إلى رصد كل ما هو مطبوع ومنشور من نتاج شعراء وشاعرات الحاضرة والبادية باستثناء المتأخرين منهم، والذي تقوم فكرته على حصر جميع الشعراء والشاعرات الذين يقعون ضمن المحددات المكانية والزمانية والموضوعية وترتيب أسماء الشعراء أبجدياً، غير أنه فصل الشعراء من الشاعرات، وبعد اسم الشاعر يورد مطالع قصائده المنشورة في المصادر المطبوعة مرتبة حسب حرف الروي في قافية العجز، وبعد مطلع القصيدة يورد جميع المصادر التي نشرت فيها بطريقة مختزلة تشتمل على الاسم الأخير للمؤلف وسنة النشر مرتبة حسب سنوات النشر.. وبعد المصدر يورد رقم الصفحة وعدد أبيات القصيدة لكل مصدر، ويمكن للقارئ التعرف على المصدر بالكامل من خلال القائمة البيبلوغرافية المستقلة التي يتضمنها الكتاب، وعدد مصادر الفهرست يقارب مئتي مصدر مما يجعلنا نقدر

حجم الجهد المبذول في هذا العمل العلمي الضخم، الذي لم يظهر إلا بجهد فردي لشخص غير عادي هو الدكتور الصويان.

والحقيقة أن العملين الأخيرين رغم الجهد الكبير المبذول والمنهجية العلمية الصارمة إلا أنه لم يتم تلقيهما بما يستحقان من التقدير في الأوساط العلمية في بلادنا، وإن كانت الأوساط العلمية في الغرب قد احتفت بهما كثيراً فما السبب يا ترى؟! السبب بدون مواربة هو أن الثقافة العربية ترفض دون غيرها من الثقافات العالمية التعامل مع آدابها العامية برحابة صدر وموضوعية.

وماذا بعد؟ هل توقف الصويان؟ لا لم يتوقف بل استمر يعمل بهدوء وصمت رهيب بعكس أولئك الذي يتكلمون أكثر مما يعملون؛ حيث انشغل باستكمال مشروعه الثقافي وبالغوص في الأعماق لاستخراج الدرر النادرة وبالعمل على إصدارات علمية فاخرة، والدكتور الصويان كسائر العلماء المجوّدين لأعمالهم المحققين لمؤلفاتهم يستغرق في إنجاز دراساته وتأليف كتبه وقتاً طويلاً، فتخرج منسقة كعقود الألماس معتقة كدهن العود لأنه يخلص للفكرة التي يتبناها ويتفانى في خدمة الموضوع الذي يبحثه ويستقصي الدقائق وتفاصيل التفاصيل فلا يترك شاردة إلا ورد بها ولا واردة إلا شرد بها، ويربط الحاضر بالماضي ويستدني البعيد بالقريب فلا يخرج عمله إلا ناضج في ظاهره وباطنه، جميلاً في شكله ومضمونه ولذا فلا غرابة أن نجد متوسط إنجاز مجمل أعماله الضخمة هو عشر سنوات تقريباً متعالياً بكبرياء العلم على زمن (التيك أوي وسلق البيض).

ففي عام ٢٠١٠م نشر الصويان في وقت واحد وفي دار نشر واحدة كتابين ضخمين يأتيان استكمالاً لمشروعه الرائد في التعريف بهويتنا الثقافية الحقيقية المتجذرة في صحراء الجزيرة العربية من خلال توظيف الثقافة الشفهية في التعامل مع الثقافة الكتابية والتاريخ المكتوب وفق منهجية علمية موضوعية مجردة، تكشف أسرار العمق التاريخي للثقافة العربية الأصيلة التي حرم أبناءها استلهامها متوهمين أنهم يقفون بذلك في صف واحد مع أحفاد الهنود الحمر!!

إن الصويان في هذين الإصدارين المتميزين يقدم لمثقفينا بكل أريحية (القفل والمفتاح) لمعرفة الحقيقة وتجاوز العُقد في سلوك حضاري يخالف السائد ويسعى من خلاله إلى ترسيخ هويتنا الثقافية أمام مد العولمة الطاغي.

والحقيقة أن هذين الكتابين متلازمان لا يفضّل قراءة أحدهما دون قراءة الكتاب الآخر جاء الكتاب الأول بعنوان (**الصحراء العربية: ثقافتها وشعرها عبر العصور: قراءة أنثروبولوجية**) وعدد صفحاته ٨١٩ صفحة، الذي جاء في مقدمة ثم مدخل أدبي، ثم فصل بعنوان (البداوة والحضارة تضادية أم تكامل)، ثم فصل مثير جداً بعنوان (القبيلة بيولوجيا أم أيدولوجيا!)، ففصل بعنوان (التكيف مع معيشة الصحراء)، والصويان يحاول في هذا الكتاب ربط الحاضر مع الماضي عبر المصادر الشفهية والثقافة التقليدية ويطمح أن يسهم عمله في تصحيح الصورة المشوهة التي تحملها النخب العربية في أذهانهم عن التنظيم القبلي، وطبيعة الحياة البدوية، وقيم الثقافة الصحراوية، وعن حقيقة العلاقة بين البدو والحضر في الجزيرة العربية، مبرراً ذلك بقوله: «لأننا غالباً ما نتبنى وجهة النظر الحضرية وتحيزاتها ضد القبيلة ونردد أنه حالما تضمحل سلطة الدولة فإن الفوضى تحل محلّها ويبدأ البدو بالسلب والنهب».

ورغم الجهد الذي بذله في هذا العمل العلمي الرصين إلا أنه يعترف بكل تواضع بأنه لم يتمكن من الوصول إلى ما يطمح إليه من إضاءة جوانب لا يزال يكتنفها الغموض والربط بين مسائل معلّقة، ويلمح إلى أن عمله مجرد اجتهادات مبدئية ووجهات نظر أولية قابلة للأخذ والرد على كل المستويات.

وإذا كان الشيخ الطنطاوي يرى أن كتاب الأعلام أحد الكتب العشرة التي يفاخر بها الأواخر الأوائل فإن هناك من يرى أن كتاب الصحراء العربية هو من الكتب التي يفاخر بها العرب العجم ويفاخر بها السعوديون غيرهم ويجب أن يكون في كل مكتبة عربية ومن المؤسف أن مثل هذا الكتاب لم يفز بأي جائزة للكتاب في المملكة العربية السعودية!!

وأما الكتاب الثاني فهو (**أيام العرب الأواخر: أساطير ومرويات شفهية في التاريخ والأدب، من شمال الجزيرة العربية مع شذرات مختارة من قبيلة آل مرة وسبيع**)، الذي جاء في مجلد ضخم عدد صفحاته ١١٤٣صفحة، وستتفاجأ في أسفل صفحة الغلاف الداخلي للكتاب بهذا التنبيه: (هذه سوالف وأساطير ومرويات شفهية وليست وثائق أو نصوصاً تاريخية محققة ومدققة)، فالصويان يتوقع ردود فعل لا تقدر قيمة عمله العلمي الرصين وهدفه النبيل، بل إنه يؤكد بكل أسف «لو كنت في منطقة من مناطق العالم المتحضر التي تقدر البحث العلمي الموضوعي المحايد فقد لا أضطر إلى هذه الاعتذارية، ولكن هو واقعنا المؤسف الذي يفرض على الإنسان أن يعتذر

لمجرد أنه يريد أن يؤدي مهمته العلمية على الوجه الصحيح وفق الأصول المهنية دون تحميل الحسابات السياسية والاجتماعية أكثر مما تحتمل»، بل ويشير إلى أن بعض من يصنفون كعلماء ومثقفين ومفكرين قد يرون أن هذا العمل معول للهدم!! لا لبنة للبناء ونافذة نطل منها على جوانب معتمة من تاريخنا وواقعنا تجاهلها هو الجهل بحد ذاته، وزيادة على ذلك فإن التعصب القبلي وخاصة في السنوات الأخيرة لا يقبل إلا أن تكون قبيلته هي الأفضل بإطلاق؛ فيبدو أن الصويان يعرف هوية معارضيه جيداً كما يعرف أن التنبيه الذي تترس به لن يفيد كثيراً بقدر ما يكون محفزاً لقراءة الكتاب!!

هذه المرويات الشفهية ابتدأ الصويان تسجيلها منذ عام ١٩٨٢م واستمر في التسجيل لعدة سنوات هي سوالف وقصائد حاول تدوينها في أقرب صورة إلى الواقع لينقلنا إلى تلك البيئة والطريقة الفطرية التي كانت تروى بها السوالف التي اندثرت تماماً الآن؛ ولم يحاول الصويان أن يفرض على نفسه رقابة ذاتية في تدوينها حتى لا تفقد متعتها الفنية وقيمتها العلمية والأدبية واللغوية؛ ومن هنا يتكرر تنبيهه بأنه لا يمكن الاعتماد على النصوص الشفهية كوثائق تاريخية قاطعة للإثبات أو النفي بصفة عامة، أو للتفاخر مؤكداً أنها مجرد أقوال عهدتها على رواتها والمجتمعات الشفهية بصفة عامة لا تعرف الموضوعية والحياد لأنها رؤية شخصية نابعة من خلفية الراوي الثقافية والاجتماعية، وهذا سبب اختلاف الروايات للحادثة الواحدة.

والحقيقة أن الجهد المبذول في تفريغ أشرطة الكاسيت وتحويلها من مادة صوتية إلى مادة مكتوبة ضخمة وفق قواعد دقيقة ومحددة ومضبوطة بالشكل هو من الصعوبة، بحيث إنه يحتاج إلى طاقات غير عادية كالدكتور الصويان جهد يستحق التقدير الجليل في سبيل الاحتفاظ بهذا الموروث الشفاهي إلى الأبد من خلال تدوينه بين دفتي كتاب عظيم كهذا الكتاب. والحقيقة أنه من الأفضل أن تكون قراءة هذا الكتاب لاحقة لقراءة الكتاب الأول (الصحراء العربية) وليست سابقة له، من الجدير بالذكر أن كتاب (أيام العرب الأواخر) ترشح لجائزة الشيخ زايد للكتاب في دورتها السادسة للعام ٢٠١١/٢٠١٢م في فرع التنمية وبناء الدولة وكان ضمن ثلاثة عناوين في القائمة القصيرة[٣٢].

(٣٢) أنهى الدكتور سعد الصويان حواراً له مع مجلة «المجلة»، بأمنية إذ قال: «ما أتمناه هو أن أتمكن قبل أن أودّع هذه الحياة من أن أقرأ كتابي أيام العرب الأواخر مسجلاً بصوتي، لأن الكتاب عبارة عن سوالف كتبتها بلغتها العامية الأصلية والقليل من القراء لديهم القدرة على قراءة ما يكتب باللهجة العامية قراءة صحيحة». انظر: سعد الصويان: مقصرون في توثيق موروثنا الشفاهي. (مجلة المجلة، ع١٩٤٧، يوليو/تموز ٢٠٢٣م، ص ص١١٤-١١٦)

وقد توجت جهود الدكتور العلمية التخصصية بكتابه الضخم (**ملحمة التطور البشري**) الذي استغرق في تأليفه ثلاثين عاماً تقريباً وصدر في عام ٢٠١٣م متوجاً بإهداء «إلى أجيال ستأتي لديها الجرأة على طرح الأسئلة ومواجهة الإجابات الصعبة»، وعندما سئل عن سر هذا الإهداء اللافت، أجاب: «لأن هناك مسلّمات تقف في طريق البحث العلمي المجرد فلا بد من تعليق المسلمات قبل البدء في البحث»، وهو يعتقد أنه لا يوجد تعارض بين الإيمان والعلم فينبغي الموائمة بينهما بإعادة النظر في المفاهيم والتفسيرات التي قد تكون مغلوطة[٣٣].

جاء الكتاب في أكثر من ١١٠٠ صفحة متضمناً صوراً ورسوماً وجداول وفهارس، وقائمة مراجع في أكثر من خمسين صفحة، هذا الكتاب فاز بجائزة الشيخ زائد للكتاب فرع التنمية وبناء الدولة في دورتها الثامنة ٢٠١٤م وكان الدكتور هو أول خليجي يفوز بهذه الجائزة! لكنه من ثقته في نفسه ومعرفته بقيمة أعماله لا يجد حرجاً في التصريح بكل أريحية بأنه يعتقد في قرارة نفسه أن العمل الذي يستحق جائزة الشيخ زايد حقيقة هو أحد الكتابين (**أيام العرب الأواخر**) أو (**الصحراء العربية: شعرها وثقافتها عبر العصور**) وليس كتابه (ملحمة التطور البشري)[٣٤]، وبينما يصف الكتاب الفائز بأنه نقل معرفي متقن حاول فيه أن يقول الحقيقة بدون مواربة لأن العلم لا يشكل خطراً، فإن يصف كتاب (الصحراء العربية) بالعمل الحقيقي الذي فكك من خلاله رموزاً كثيرة، وفي الوقت نفسه هو ذو معنى بالنسبة لواقع الجزيرة العربية ولذا فهو أغلى كتبه بلا ريب [٣٥].

كما صدر له في ٢٠١٤م كتاب بعنوان (**محاضرات في أدب الصحراء العربية**) عن وزارة الثقافة في قطر.

وتحت عنوان (**أطروحات إثنولوجية**) صدر له كتاب عام ٢٠٢١م عن دار مدارك في ٦٥٤ صفحة، ويتضمن هذا الكتاب عدداً من المباحث باللغتين العربية والإنجليزية المنشورة في دوريات علمية متخصصة، عدا واحدة منها باللغة العربية وخمس باللغة الإنجليزية تنشر لأول مرة، ويتناول في هذه المباحث بعض القضايا المتعلقة بالثقافة

---

(٣٣) برنامج المقابلة، مرجع سابق.

(٣٤) الذاكرة السعودية، مرجع سابق.

(٣٥) برنامج في الصورة، مرجع سابق.

المحلية بالمعنى الأثنولوجي للثقافة الذي يهتم بالجانب القولي والمعنوي تتمحور حول موضوعات الشعر النبطي والقوانين العرفية في البادية وتفسير ظاهرة الكرم العربي وشعر المديح. ونشر من هذا الكتاب في الوقت نفسه طبعة باللغة الإنجليزية.

وما زال الدكتور يعمل ويبحث بلا كلل ولا ملل فقد أشار قبل سنوات إلى عمله على مشروعين علميين كبيرين بالتوازي؛ أحدهما عنوانه : (**من الأسطورة إلى التنزيل: تطور المفاهيم الدينية في الشرق الأدنى**)، وهو عبارة عن تتبع لجذور الدين ابتداء من بلاد سومر ومصر القديمة، أما العمل الآخر فهو معجم موسوعي ثقافي شامل لمفردات اللهجة العامية والشعر النبطي، وكل ما يتعلق بمعيشة القرية وحياة البادية وطبيعة الصحراء، بتضاريسها وأنوائها ونباتاتها وحيواناتها، كما أن لديه مشاريع أخرى في الفلسفة والفكر الاجتماعي، ندعو الله أن يطيل في عمره ويبارك في علمه وعمله وصحته لاستكمال هذه المشاريع التي ينتظرها الجميع وعسى أن يكون ذلك قريباً.

وأود أن أنوّه هنا عن تجربة الدكتور سعد الصويان في الكتابة الصحفية المنتظمة التي بدأت في جريدة الاقتصادية خلال الفترة (٢٠٠٥-٢٠١١م)، وهي مقالات متنوعة في الشأن المحلي السعودي كان ينشرها أسبوعيّاً ويكتبها بأسلوب خاص يجمع بين العمق والبساطة والجدية والسخرية، قدّمها بدون مواربة لتشخيص الوضع الداخلي وتركيبة المجتمع وطبيعة معطياته، وتناول فيها بعض القضايا الحسّاسة وتحدث في المسكوت عنه بجرأته وصراحته التي اعتادها وحريته التي يتجاوز فيها خطوط الرقيب الذي لم يجد بدّاً من إيقاف هذه المقالات، وقد جمع هذه المقالات بقضها وقضيضها في كتاب عنوانه (**فسح سهواً**) صدر في عام ٢٠١٢م، لتكون أمام القارئ ليحكم بنفسه إن كان فيها ما يستحق المنع.

ومن المحطات التي يجدر التنويه عنها تجربته الإذاعية في عام ٢٠٠٦م[٣٦]، إذ إنه فكر في إطار توظيف أرشيف التسجيلات الصوتية التي بين يديه والاستفادة من محتواه في إعداد وتقديم برنامج إذاعي على أثير (MBC FM) تحت عنوان (سواليف من الأرشيف)، وتم اختيار توقيت بثه اليومي بعناية بحيث يتوافق مع خروج الموظفين من أعمالهم عند الساعة الثانية والنصف ظهراً فيستمعوا في سياراتهم لمدة ثلث ساعة

(٣٦) بثت أولى حلقاته يوم السبت ١/ ٤/ ٢٠٠٦م. انظر: (جريدة اليوم بتاريخ ٢٠٠٦/٣/٣١م. جريدة الرياض، العدد ١٣٨٠٣، الأحد ١١ ربيع الأول ١٤٢٧هـ / ٩ أبريل ٢٠٠٦م).

لقصص وقصائد مسلية في مشوار العودة إلى المنازل في أثناء زحمة السير بعد يوم من العمل والتعب، بالإضافة إلى كونه لا يخلو من التثقيف لما يحتويه من معلومات كثيرة عن الماضي وحياة البادية وأشعارهم.

ولكن أيضاً لم يستمر البرنامج طويلاً إذ أُوقف قبل أن يكمل دورته البرامجية بسبب الحساسيات الاجتماعية، التي لم تستوعب الوعي المعرفي بأهمية البرنامج ودوره الثقافي في ربط الحاضر بالماضي.

VIII

وحدة الذاكرة السعودية

في عام ٢٠١١م عرض الدكتور سعد الصويان في موقعه في الإنترنت مكتبته الخاصة للبيع، وهي مكتبة ضخمة تضم عدة آلاف من الكتب في مختلف العلوم والفنون، من بينها مطبوعات نادرة بالعربية والإنجليزية ومخطوطات قيّمة جمعها على مدى عشرات السنين من كل بلدان العالم، إضافة إلى ما تحتويه من التسجيلات الصوتية الثمينة، لفت هذا الحدث الساحة الثقافية فتساءلت ما إذا كان الحاجة المادية أو الاحتجاج على الواقع العلمي هي الدافع للإقدام على هذه الخطوة، ولكن ظهر بكل بساطة قائلاً: إنه استنفد أغراضه من المكتبة ويكاد يكون قرأها بالكامل وأنجز منها عشرات البحوث الأكاديمية المتصلة بحقل تخصصه، كما أن أبناءه لم يشجعوه في الاحتفاظ بها حيث إنهم منصرفون إلى علوم وتخصصات أخرى، ولفت إلى أن الخيارات كانت أمامه عديدة حيال التصرف في المكتبة بيد أنه قرّر أن يكون واقعياً ويعرضها للبيع، مؤكداً أنه ليس ثمة غرابة في ذلك، حيث عرض الكثير من المثقفين المعروفين مكتباتهم للبيع، كما أنه يريد لهذه الثروة أن تحفظ في مكان واحد لتستمر الاستفادة منها لأنه لا يعلم عن مصيرها بعد وفاته[٣٧].

ويشاء الله أن يقتني صاحبُ السمو الملكي الأمير محمد بن فيصل بن عبدالعزيز آل سعود مكتبة الصويان ومجموعته الصوتية ويهديها إلى مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية فتتحقق أمنيته في المحافظة عليها والاستفادة منها، ولكن الأمر لم يتوقف عند هذا بل إن المركز اقتناعاً بكفاءة الصويان العلمية بصفته باحثاً أكاديميّاً رصيناً سعى إلى استقطابه للاستفادة من خدماته لتحقيق أهداف المركز الفكرية والثقافية فالتحق بالعمل مستشاراً في المركز عام ٢٠١٦م، ويرى أن ذلك جعله يسترد ثقته بنفسه وبقدراته بعد أن حاول ذلك الجيل الذي عاصره من صبيان الصحوة تحقيره والحط من شأني كباحث أكاديمي متميز ولذا فهو يشعر بالامتنان بشكل خاص للأميرة مها الفيصل لتقديرها ودعمها، وباقتراح منه وتأييد القائمين على المركز أُنشئت وحدة

(٣٧) صحيفة الراية القطرية، ١٨ يوليو ٢٠١١م. برنامج المقابلة، مرجع سابق.

الذاكرة السعودية عام ١٤٣٨هـ/٢٠١٧م تحت إشرافه بهدف حفظ وتوثيق التاريخ الثقافي والاجتماعي والفني والإبداعي في المملكة العربية السعودية ودراسته من منظور أنثروبولوجي، لتدير هذه الوحدة مكتبة الصويان الخاصة ومجموعته الصوتية ثم أضيف لها مجموعة الباحث الهولندي مارسيل كوربرشوك ومجموعة الباحثة الأمريكية أليسون ليريك وغيرها من المواد السمعية والبصرية، وهي وحدة بحث فريدة لا مثيل لها إلا ربما في جامعة ولاية إنديانا في الولايات المتحدة الأمريكية أو جامعة أمستردام في هولندا، ومحتوياتها الآن متاحة للباحثين الأكاديميين في مجال اللهجات ومجال التاريخ الشفهي والتاريخ القبلي للمملكة العربية السعودية، وكذلك عادات وسلوم القبائل وما دار بينهم من نزاعات على الماء والمرعى[٣٨].

(٣٨) الذاكرة السعودية، مرجع سابق.

IX

الإنسان سعد الصويان:

وبعد هذا العرض لملامح من سيرة وإنتاج الدكتور سعد الصويان العلمي والثقافي فإني سألخص بعضاً من ميزاته التي لمستها عن كثب من خلال عرى العلاقة الثقافية والشخصية، فهو يتميز بسعة الاطلاع والثقافة الموسوعية والقراءات الشاملة وبأكثر من لغة ويظهر ذلك جلياً في تنوع الفنون والمعارف التي برع في الكتابة فيها، ثم هو يخضع جميع أعماله لمنهج علمي صارم لا يتهاون فيه أبداً وهو ما أكسب أعماله موضوعية وموثوقية لدى الأوساط العلمية في مختلف دول العالم.

كما يتسم بالاستقلالية الفكرية وعدم التبعية، ومن سماته الصدق والصراحة فهو لا يسكت عن الحق ولكنه لا يقول نصف الحقيقة بل يرمي بالحقيقة بين الأكتاف ولا يبالي، هذه الصراحة يحيلها إلى نشأته الفلاحية تارة وإلى اكتسابه حرية التعبير عما في نفسه بدون حرج في أثناء دراسته في الغرب تارة أخرى، ولعل هذه الصراحة أفقدته الكثير في مجتمع عربي درج على المجاملة والدبلوماسية في كل أحواله.

بقي نقطة مهمّة تدل دلالة تامة على أن الصويان عالم حقيقي ألا وهي التواضع مصداقاً لقول الشاعر:

مـــلأى الســـنابل تنحنـــي بتواضـــع والفارغـــات رؤوســـهن شـــوامخ

فهو يتعاطى مع الجميع بأريحية عجيبة يدمجها بروح الفكاهة التي تذيب كل الحواجز بينه وبين أي طرف مهما كان مستواه الاجتماعي أو الثقافي، كما أنه ظل يتعامل بكرم منقطع النظير مع الباحثين والمهتمين، وليس أدل على كرمه هذا من موقعه على الإنترنت الذي حوله إلى مكتبة حقيقية أتاح للجميع من خلالها عشرات وربما مئات المصادر القيّمة من المخطوط والمطبوع والتسجيلات الصوتية التي يمكن الإفادة منها بكل يسر وسهولة.

X

وأخيراً فإني أدعو الجهات المختصة في الدولة إلى تكريم هذه الشخصية تكريماً نوعياً يليق بعالم في قامة الصويان وحجمه؛ لأنه مثل رأس المال الذي يجب استثماره أو الاستثمار فيه، مثل إنشاء كرسي بحث باسم الصويان وتحت إشرافه في إحدى الجامعات السعودية أو إنشاء مركز بحوث مستقل باسمه ودعمه بجميع الإمكانات لتحقيق طموحاته وتنفيذ مشاريعه، فمثل هذا من أقل حقوق العالم على وطنه ودولته.

نبذة عن الكتّاب

قاسم بن خلف الرويس، باحث في التاريخ، متخصص في تراث وآداب الجزيرة العربية، عمل مستشاراً في دارة الملك عبدالعزيز وباحثاً في مركز الملك فيصل للدراسات والبحوث الإسلامية، منشغل بالتأليف والتحقيق والكتابة الإبداعية، من أهم كتبه المنشورة: (يوميات الدبدبة: أول مذكرات يومية في حروب الملك عبدالعزيز لتوحيد المملكة العربية السعودية)، (مسائل الجوار والحماية عند البادية في الجزيرة العربية)، (رشدي ملحس من نابلس إلى الرياض)، (مخطوطة العسافي)، (أخبار نجد)، (كتب إلينا من جزيرة العرب)، (بدويات وحضريات)، (سوانح أفكار لأمير البيان شكيب أرسلان)، (مذكرات يوسف ياسين)، (الملك فيصل في الفيصل)، (نجديات الكرملي).

مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية

مؤسسة غير حكومية مستقلة مقرها مدينة الرياض، بالمملكة العربية السعودية. وقد تأسس المركز عام ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م، من قِبَل مؤسسة الملك فيصل من أجل الحفاظ على إرث المغفور له الملك فيصل ومواصلة رسالته النبيلة في نشر العلم والمعرفة بين المملكة وبقية دول العالم. يُعدُّ المركز منصة للبحوث والدراسات الإسلامية والمعاصرة، تجمع الباحثين ومراكز الأبحاث من المملكة وحول العالم، من خلال المؤتمرات وورش العمل والمحاضرات، وإنتاج ونشر الأعمال الأكاديمية، وأيضًا من خلال الحفاظ على المخطوطات الإسلامية. ويهدف المركز إلى توسيع نطاق المؤلَّفات والبحوث الحالية لتقديمها إلى صدارة النقاشات والاهتمامات الأكاديمية، مُتتبّعا إسهامات المجتمعات الإسلامية في العلوم الإنسانية والاجتماعية، والفنون، والآداب قديماً، وحديثاً.

تضم إدارة البحوث بالمركز مجموعة من الباحثين المرموقين والواعدين الساعين إلى إنتاج أبحاث وتحليلات متعمقة في مختلف المجالات، كالدراسات الثقافية، وعلم الاجتماع الاقتصادي، والدراسات الإفريقية، والدراسات الآسيوية، بالإضافة إلى الدراسات اليمنية.

يحتوي المركز على المكتبة التي تحتفظ بمخطوطات إسلامية نفيسة، وقواعد بيانات ضخمة في مجال العلوم الإنسانية، كما يضم إدارة المتاحف التي تحتوي على ست مجموعات قيمة يحفظها المركز، ويحتوي كذلك على متحف الفن العربي الإسلامي.

ويضم المركز «دار الفيصل الثقافية»، وهي ذراعه التنفيذية فيما يتصل بصناعة النشر؛ حيث تقوم الدار بإصدار الكتب والمجلات الثقافية والمحكَّمة، كما يضم «دارة آل فيصل» التي تُعنى بتوثيق سيرة الملك فيصل وأبنائه، وحفظ تراثه.

لمزيد من المعلومات يُرجى زيارة موقع المركز https://kfcris.com/ar

مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية
King Faisal Center for Research and Islamic Studies

ص.ب ٥١٠٤٩ الريـــــاض ١١٥٤٣ المملكة العربية السعودية
هاتف: ٤٥٥٥٥٠٤ (١١ ٩٦٦+) - فاكس: ٤٦٥٩٩٩٣ (١١ ٩٦٦+)
بريد إلكتروني: research@kfcris.com